العنوان:	الأولياء والأسود في تاريخ المغرب الوسيط: نماذج من العصرين الموحدي والمريني
المصدر:	التصوف والمجال والإنسان: أعمال مهداة إالى الأستاذ عبداللطيف الشادلي
الناشر:	الجمعية المغربية للبحث التاريخي
المؤلف الرئيسي:	نشاط، مصطفى
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2016
مكان انعقاد المؤتمر:	الرباط
الهيئة المسؤولة:	الجمعية المغربية للبحث التاريخي
الصفحات:	17 - 30
رقم MD:	883326
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	الأسود، الأولياء، الدولة المرينية، الدولة الموحدية، المغرب الوسيط
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/883326

الأولياء والأسود في تاريخ المغرب الوسيط
نماذج من العصرين الموحدي والمريني

مصطفى نشاط*

1- ملامح من جغرافية الأسود بالمغرب الوسيط

قد يكون ذكر الأسد من أكثر الحيوانات ورودا بالمصادر المغربية الوسيطية، ليس لشهرته بالقوة والبأس فحسب، بل لأن ذلك يعكس واقع كثرة الأسود بالبيئة المغربية الوسيطية. فالإشارات المصدرية المتوافرة عن هذا الحيوان، تسمح بالقول بأنه عاش بمختلف مناطق المغرب الأقصى الشمالية الغربية، على خط يربط بين بسيط أنگاد بالشمال الشرقي إلى جبال درن بالجنوب الغربي. ويقدم ابن الزيات لوحة مهمة عن حضور الأسود بالمغرب في العصرالموحدي، إذ كانت تنتقل بهسكورة وبلد إيلان وحول أزمور وبجبل درن وبتادلا وجبل إيروجان وأنسا وتاحنيت، وحول مدينة فاس[1]. كما أن الأسود وجدت في العصر نفسه بمقربة من مكناسة،[2] وبالغابة على وادي أم الربيع[3]. وتتزايد الإشارات عن وجود الأسود بالمغرب في العصر المريني، فقد أصبحت تعيش بمحاذاة فاس، حتى إن أحدها وصل إلى باب الفتوح[4]، وكانت الأسود تتحرك كذلك

* أستاذ التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بوجدة.

1- ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، 1984، ص253-382- -189 172-103-339-342-217-167-166-216.

2- التميمي أبو عبد الله محمد، **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس ومايليها من البلاد**، تحقيق محمد الشريف، تطوان، 2002، ج2، ص.121.

3- الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، دار المناهل للطباعة، القاهرة، 1994، ج1، ص237.

4- ابن الأحمر وآخرون، **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور، الرباط، 1972، ص22.

بالفضاء الممتد من مليلة إلى كبدانة[5]. كما كانت منطقة آسمير بظاهر سلا معروفة آنذاك بأسودها[6]. ولعل أوفى لوحة عن انتشار الأسود بالمغرب الوسيط، هي التي قدمها الوزان عن العصر الوطاسي الذي هو امتداد للعصر المريني، فقد وجدت بجبل زرهون وبمنطقة الحجر الأحمر، وبسايس والمعمورة وعلى ضفاف لكوس والهبط وبمنطقة أكلا وبجبل سليليو وبسهب المرجة وأزغار إيكمارن ومزدغة وبجبل حنك الغربان وببسيط أنكاد[7].

لم يكن الأسد بالمغرب الوسيط مجرد حيوان مفترس يعيش منزويا بالغابة، بل إنه بصم حياة المغاربة عصرئذ[8]، فقد كان يقطع الطريق على المارين، وافترس بعضهم أحيانا، ونجا منه البعض الآخر فرارا، وأصبح في بعض المناطق يؤثث مشهدها العام، ويعيش في ألفة مع سكانها، كما أنه تجاوز حدود الغابة والأحراش، ووصل إلى أبواب بعض المدن. ولم يكن الأسد غائبا عن مدينة مراكش، حيث كان يخصص له معرض منفصل عن باقي الحيوانات الوحشية[9].

ومن المعلوم أن الخليفة الموحدي عبد المومن لم يتوان عن توظيف رمزية الأسد لتكريس سلطته وإخضاع محكوميه. ذلك بأنه تعود على التوصل بالأسود كهدايا، وكان يثيب فاعليها عليها[10]. وقد درب طائرا على ترديد كلمات بالعربية تقول"النصر والتمكين للخليفة عبد المومن أمير المؤمنين، سند المملكة وناصرها"، وربى شبلا حتى صار له تبعا، ثم قام بدعوة شيوخ الموحدين، وجلس في مكان عال ليطلعهم على خبر وفاة المهدي بن تومرت بعد إخفائه مدة ثلاث سنوات، وطلب منهم نبذ خلافاتهم، وأن يتم اختيارهم على رجل واحد يخولون له السلطة المطلقة، وبمجرد الانتهاء من كلمته، شرع الطائر في ترديد الكلمات الآنفة بالذكر. وفتح عبد المومن بابا كان الأسد بورائه، ولما شاهده الحضور"وهو منفوش الشعر، مكشرا عن أنيابه، رافعا ذنبه، وعيناه تقدحان

5- ابن قنفد القسنطيني، **أنس الفقير وعز الحقير**، الرباط، 1965، ص 86 و129 و141.

6- الحضرمي محمد بن أبي بكر، **السلسل العذب والمنهل الأصفى**، منشورات الخزانة الصبيحية،، 1988ص 95.

7- الوزان الحسن، **وصف إفريقيا**، الرباط، 1980، ج1ص، 166-232-239-238-237 -283-282-280-284، ج 2، ص11

8- يتجلى حضور الأسد في الذاكرة المغربية من خلال عدة مظاهر، مثل حمل بعض الأسر»السبع»إسما عائليا لها، أو تسمية بعض الأماكن بهذا الحيوان كعين السبع بالبيضاء، وباب السبع إحدى أبواب فاس المرينية، كما أن سيدي بليوط (أبو الليوث) بالبيضاء هو لقب لأحد أولياء المدينة اشتهر بترويضه لليوث. وعرف المجاهد عبد الكريم الخطابي بلقب»أسد الريف»...

9- الوزان، **وصف إفريقيا، م.س.** ج1، ص106.

10- ابن سماك العاملي، **الحلل الموشية**...تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة،1978، ص. 149.

بالشر..." استبد الذعر بالجميع، وارتعدت فرائصهم، فتدخل عبدالمومن وأوقف الأسد عن هيجانه، وقد ظل الأسد رفيقا لعبد المومن"كالكلب الوفي، يرافقه حتى في المسجد أثناء الصلاة"[11]. وقد سجل الأشيري شاعر عبد المومن هذا المشهد بأبيات مما جاء فيها:

أنس الشبل ابتهاجا بالأسـد　　　　ورأى شبه أبيه فقـصد

ودعا الطائر بالنصر لكـــم　　　　فقضى حقكم لما وفـد[12]

لا يختلف عبد المومن في هذا المستوى، وهو الخليفة، عن الأولياء الذين اشتهروا في تاريخ المغرب الوسيط، مثل أبي يعزى، بترويضهم للأسود. إن كل رمز يحمل دلالات معينة تتغذى من الثقافة السائدة، فالأسد يرمز إلى الملك، إذ هو ملك الغابة، وكيف لا يرنو إلى ملك الآخرين من تمكن من ملك الأسد! ولا غرو أن كان، وما يزال الأسد يتخذ رمزا في مختلف الثقافات، بما فيها الثقافات التي لم يعش الأسد ببيئتها[13].

كما غدا الأسد عنصرا من عناصر الاحتفالية بالمغرب الوسيط، فقد تعود بعض حكامه على الحضور لملعب الأسد حيث كان يصارع الثور، وقد حضر ابن جزي هذه المصارعة على عهد أبي عنان الذي كان يشرف عليها من أحد أبراج القصر السلطاني بفاس، على"ما جرت به عادة الملوك"[14].

ومما قاله في شعر بهذه المناسبة:

لاح الخليفة من برج العلا قمرا　　　　يشاهد الحرب بين الثور والأسد[15]

كما حضر لسان الدين بن الخطيب مبارزة الأسد للثور على عهد السلطان نفسه الذي كان"مولعا بقتل الأسد"، ووصف مراحلها إلى أن يخور الأسد عن المبارزة"متخبطا

11- أشباخ يوسف، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ترجمة محمد عبد الله عنان، الطبعة 2، القاهرة، 1996، صص.206-205.

12- ابن سماك العاملي، الحلل الموشية، م.س. ص 149.

13- يظهر ذلك جليا في اتخاذ بعض الأندية الرياضية وبعض المنتخبات الأسد شعارا لها، مثل فريق شيلسي الانجليزي، والمنتخب المغربي لكرة القدم(أسود الأطلس). كما أن تنظيمات حزبية تتخذ الأسد شعارا لها، مثل الحزب اللبرالي في المغرب. وإذا كان من المعلوم أن الأسد ظل يعيش بالبيئة المغربية إلى عشرينيات القرن العشرين الميلادي، فإن اتخاذ هذا الحزب الأسد رمزا له، يدفع إلى التساؤل عن مدى استيعاب القائمين عليه للعلاقة الموجودة بين اللبرالية التي لا تعترف إلا بالربح، مما لا ينفي عنها توحشها، والسلوك الوحشي المفترض للأسد. عن هذا التحليل، يرجع إلى سعيد بنكراد، "الترميز السياسي وبناء الهوية"، **مجلة علامات**، عدد19، 2004.

14- المقري، **نفح الطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، دون تاريخ، ج5، ص530.

15- **المصدر نفسه**، ج5،ص 532.

في دمه"، وأنشد ابن الخطيب قصيدة في الموضوع، ومما جاء فيها:

كان الهزبر محاربا فجزيته   بجزاء من في الأرض رام فسادا[16]

ويبدو أن أهم شاعر أرخ لمبارزة الأسد للثور في عهد أبي عنان، كان هو أحمد المنان الأنصاري الخزرجي الذي نظم في الموضوع قصيدتين، ويبلغ عدد أبيات الأولى 87 بيتا، وعدد أبيات الثانية 93 بيتا، ومما جاء في الأولى:

ومصارع الآساد ليست هذه   بمصارع الإدلاج والإسراء

لقد كان يجلس أبو عنان بمكان عال بقصره بفاس، ويختبئ المحاربون للأسد بأكرة مستدارة من خشب، ويدخل كل رجل في كرة يحركها ويمشي بها، ويهم الأسد بافتراس الرجل ويضرب الكرة بيده، فلا يكسرها لشدتها. ويقدم الشاعر المنان وصفا عن شبكة صيد الأسد وانتصابها بالقصر، يصف كذلك الثور المعد لمصارعة الأسد، ومما جاء في قصيدته الثانية:

ذلت لبطشه الأسود وأنها   لتذل لولا عز بطشته الطلا[17]

وكان رجال جبل زرهون زمن الوزان على غاية من القوة والجرأة، ما جعلهم مكلفين باقتناص الأسود في الغابة لإهدائها إلى ملك فاس. ويصف الوزان وصفا بليغا كيفية تنظيم مصارعة الأسد للثور، بحضور الملك بساحة واسعة من القصر، ولا يختلف الوصف عما قدمه الشاعر المنان على عهد أبي عنان. ذلك بأنه كان يقع ترتيب عدد من الصناديق الكبيرة التي يسع كل منها لرجل يمكنه أن يتحرك، ويقف داخلها بسهولة، وكان كل صندوق يحتوي على باب صغير، يجلس فيه رجل يحمل السلاح. وبعد أن يطلق الأسد بالساحة، يقوم الرجال المسلحون بفتح أبواب صناديقهم بالتناوب، فتثار ثائرة الأسد الذي يجري نحو كل باب صندوق يفتح بابه، لكنه ما إن يقترب منه، حتى يغلق، مما يزيد من هيجان الأسد. آنذاك يطلق الثور بالساحة، ويدخل الحيوانان في مصارعة دامية بينهما، وينتهي اللقاء بقتل الثور للأسد إذا ما خارت قوته، وبالتالي ينتهي

16- لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**،تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، 1974، ج2، صص 20-19.

17- ابن الأحمر أبو الوليد، **نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان**، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، دمشق، 1976، ص 346.

المشهد. وقد يقتل الأسد الثور، مما يجبر الرجال المسلحين على الخروج من صناديقهم لمواجهة الأسد. وكان عدد هؤلاء الرجال يبلغ إثنى عشر مدججين بحراب يحمل كل منها نصل حديد، وإذا ما لاحظ الملك أن الرجال تفوقوا على الأسد، أمر بإنقاص عددهم، وأما إذا تفوق الأسد عليهم، أمر برميه بقاذفات من أعلى الشرفات، وقد ينتهي المشهد بمقتل أحد الرجال المحاربين، أو بجرح الآخرين، وكانت قيمة الجائزة التي يقدمها الملك لكل منهم عشرة مثاقيل وكسوة جديدة[18].

وبغض النظر عن الجانب الاحتفالي في حضور السلطان لمبارزة الأسد للثور، فإن المشهد يؤشر على نجاح السلطة في تطويعها للأسد، وهو المعروف بالبطش والقوة، وكأنها رسالة إلى الآخرين عما تمتلكه هذه السلطة من أدوات القهر، وأن قضاءها على من تسول له نفسه التطاول أو الانتزاء عليها، لهو أهون من القضاء على الأسد. ولعله ليس من قبيل الصدفة أن نلاحظ بأن ترويض الأسد بقصر الخلفاء الموحدين، اقترن بعهد عبد المومن، وأن مبارزة الأسد للثور في تاريخ الدولة المرينية، سادت أكثر في عهد أبي عنان، فكلا العهدين يشكلان أكثر عهود الدولة دموية بالمغرب الوسيط، وبهما جربت مختلف وسائل العنف للتخلص من الخارجين عن حكم هذين الحاكمين.

2) كرامة ترويض الأسود بالمغرب الوسيط:

تؤسس الرواية المنقبية لعلاقة نمطية عن الصلات التي جمعت الولي بالأسد بالمغرب الوسيط، إذ تجعل الثاني منقادا للأول، وخاضعا لأوامره، وذلك بالرغم مما يعرف عن الأسد من بطش وقوة. ولعل أبا يعزى كان من أكثر الأولياء الذين ارتبطت كراماتهم بترويض الأسود، ما جعل مزاره يسم الذاكرة المغربية باعتباره مسعفا على اتقاء شر الأسود. فقد زاره الوزان عدة مرات في القرن10 هـ /16م، عندما تعرض لخطر الموت بسبب الأسود[19]. وأنكرت جماعة من فاس على أبي يعزى كراماته، وبينما هم يتأهبون للنزول من دوابهم للسلام عليه، خرج أسد، ووثب على دابة أحدهم "فصاح أبو يعزى ودنا منه إلى أن أخذه بأذنه"، وطلب أحد أصحابه بالركوب على الأسد، وأجراه وأقام عليه ساعة، ثم نزل عنه وانسحب الأسد[20]. إنها نموذج للروايات التي ترد عن ترويض الولي للأسد، باعتبارها حجة على المنكرين، وانتصارا لكرامة الولي بالمغرب الوسيط.

18- الوزان، وصف إفريقيا، م.س. ج1، ص 228-227.

19- الوزان، م. ن. ج1، ص163.

20- الصومعي أحمد التادلي، كتاب **المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996، ص128.

وقد لا يكتفي الولي في ترويضه للأسد بالدعاء عليه أمام الحاضرين، بل يتحول المشهد إلى مواجهة حقيقية مع الأسد. ومن مظاهر هذه المواجهة، ما تذكره الرواية المنقبية عن علي بن ماخوخ التوزيني الذي طلب من أتباعه أن يكفوه من الأسد لما اشتد زئيره، فلم ينته، وخرج إليه، وجعله مجرد كلب تابع له، وذلك بعد أن عاد إليهم والشعر الذي بين عيني الأسد في يده، وانتهت المواجهة بأن وجد الأسد من الغد ميتا قرب زاوية هذا الولي[21].

لقد تبلورت علاقات الولي بالأسد بالمغرب الوسيط من خلال مجموعة من الأفعال التي يمكن أن نحصرها فيما يلي:

أ: كرامة ترويض الأسد في الصراع بين السلطة والأولياء:

نقرأ في إحدى الكرامات المؤرخة بسنة 541 هـ أن الأخبار وصلت إلى الخليفة الموحدي عبد المومن عن كثرة الجموع التي كانت تقبل على أبي يعزى، مما أصبح "يخشى على الدولة منها". فطالب عبد المومن بإحضار الولي وإخضاعه للمكاشفة بالعيان. وخلال العملية، أخبر الولي الحضور بأن حماره سيفترسه الأسد، ولهذا بادر عبد المومن إلى إعطاء أوامره بوضع حمار أبي يعزى في مرابط خيل المحلة تحت مراقبة الحراس. وعند طلوع الفجر، وبعد تفرق الحراس، قام أسد بافتراس الحمار، وبقي رابطا بموضعه إلى أن تقدم إليه أبو يعزى، فضربه بعصاه وأرداه قتيلا، ولما نقل الخبر إلى عبد المومن، قال لجلسائه"اعتبروا بهذه القصة وإن كانت عجبا، فإنه ضربها لكم إلا مثلا، وجعلها لكم تأديبا كأنه يقول لكم: أنا رب الدابة فقتلها الأسد فسلطت عليه فقتلته"[22].أليس هذا اعترافا من السلطة الزمنية بتحقيق الولي بما عجزت عن تحقيقه ! إن توطين الكرامة بسنة 541هـ يجعلها تخرج عن السياق النمطي الذي عادة ما تأتي فيه الكرامات، إذ يغيب بها عنصر الزمن، وتتأسس على التكرار.

لقد جاء سياق الكرامة في فترة أفصح خلالها عبد المومن عن مواقفه المتشددة من الأولياء، وهو الذي كان قد تمكن منذ سنة من القضاء النهائي على دولة المرابطين، ودخول الموحدين إلى عاصمتهم مراكش. ونشير إلى أنه إبان حصار الموحدين لمراكش، كان عبد المومن قد أمر باستقدام الولي عبد الجليل ابن ويحلان من أغمات إلى جبل اجليز، ولم تشفع له مبررات مرضه، إذ أصر خدام عبد المومن على أن يحملوه، ولو على

21- البادسي عبد الحق، **المقصد الشريف، والمنزع اللطيف في التعريف بعلماء الريف**، تحقيق سعيد أحمد أعراب، الرباط، 1982، ص.114.

22- الصومعي، **المعزى**، م.س. ص ص 116-115.

نعش[23]. كما أنه في سنة 541هـ أمر عبد المومن بإشخاص أبي يعزى، بل إنه تعرض للحبس بصومعة جامع الكتبية لأيام، كما تم اختبار أستاذه أبي شعيب الأزموري في مسألة التوحيد[24]. إن تعبير"أشخصه"الذي استعمله صاحب المعزى، قد لا ينفي اقتران عملية الإشخاص بوسائل الترهيب والوعيد.

وكيفما كان الأمر، فإنه بعد إطلاع عبد المومن على قصة ترويض أبي يعزى للأسد، اعتبرها مما يدخل في باب العجب، مما يكشف عن ذلك الصراع الخفي والمعلن بين السلطة السياسية والسلطة الرمزية للأولياء في تاريخ المغرب الوسيط. ويمكن أن نجازف بتأويل لخطاب عبد المومن باعتبار الدابة ترمز في انقيادها إلى العامة أو المجتمع بصفة عامة، ويرمز الأسد إلى السلطة السياسية، بما تقوم عليه من بطش وقوة. فتربية عبد المومن للأسد، لم تكن تخلو من رغبة في بث الرعب والرهبة في نفوس الآخرين، مثلما يزرعهما وجود الأسد بين الحيوانات. ولعل هذه الرمزية إلى البأس والشدة التي يمتلكها الأسد في المخيال الإنساني، تفسر الإقبال الذي وجده التسمي بالأسد أو التلقب به عبر التاريخ. فريشارد الأول ملك انجلترة، وقائد الحروب الصليبية الثالثة أواخر القرن 12م، تلقب بريشارد قلب الأسد، وحمل بعض الملوك السلاجقة لقب"أرسلان" الذي يعني الأسد عند الترك والمغول. وقام اتخاذ الأسماء والألقاب عند العرب في الجاهلية على قاعدة"أسماء أولادنا نخيف بها أعداءنا وأسماء خدمنا نستأنس بها عند سماعها"، فانتشرت لديهم أسماء وألقاب تدل على الأسد، مثل الحارث وهرثمة وضرغام[25]....

ب: كرامة تخليص الناس من بطش الأسد:

شكل وجود الأسد بالبيئة المغربية أحد مصادر الخوف لدى المغربي في العصر الوسيط، فالتنقل كان يتم مشيا على الأقدام، أو على أظهر الدواب. ويتحدث الوزان غير مامرة عن هاجس تخوف المغربي من أن يكون عرضة لافتراس الأسد، بل إن الوزان نفسه لم ينج من هذا الشعور، لما كان يوما ما بقرية تيوت (بإقليم حاحا) في منتصف شهر أبريل، فهاجم أسدان ليلا خيول المسافرين، وشرعت في الصهيل، حتى إن الناس تخوفوا من انهيار السقوف[26]، ويصف الوزان أسود بعض المناطق المغربية كالمعمورة، بكونها

23- التادلي، **التشوف**، م.س. ص 149.

24- الصومعي، **المعزى**، م.س. ص 74.

25- من المثير للانتباه أن أسماء بعض الحكام العرب أو من بيدهم سلطة القرار، تحيل إلى الحيوانات الشرسة، كالأسد والفهد، أوترمز إلى الشدة والبطش. مثل «القذافي»أو«قذاف الدم»أو«صدام».....

26- الوزان، وصف إفريقيا، م. س. ج1، ص.81.

أكثر أسود أفريقيا ضراوة[27].

تجعل الرواية المنقبية من الولي صمام أمان من هجوم الأسود على مغاربة العصر الوسيط، وتداول الناس آنذاك وجود"تخصص"لدى بعض الأولياء في ترويض الأسود. فمن كان عند أبي يعزى، وسافر من دون إذنه"اعترض سبيله عائق مرض أو سبع أو عقرب"[28]. ولعل من أهم اللحظات الواردة بالروايات عن تدخل الولي ضد الأسد، هي لحظة الوضوء والتأهب للصلاة. ومن ذلك أن أحد أتباع أبي الحسن بن حرزهم لم ير"مكروها مدة حياته"بفعل ملازمته له. وكان أن قدم عليه رجل عشاب، وقام ليلا لأجل الوضوء، ولما خرج من الرابطة، وجد الأسد عند العين، فرجع فزعا، ثم خرج صاحب ابن حرزهم مع العشاب، وتقدم إلى الأسد"وفتل أذنه وبصبص له الأسد، وضربه بقضيب كان بيده، وقال له: ألم أقل لك لا تروع أصحابي، ففر الأسد وتوضأ العشاب..."[29]. وأما الحسن بن مخلوف الراشدي (دفين أبركان) فكان بصدد الوضوء والأسديترصده، ولما انتهى من الوضوء، التفت إليه وهو يردد»تبارك الله أحسن الخالقين ثلاثا، فأطرق الأسد برأسه إلى الأرض كالمستحيي، ثم قام ومضى»[30].

ويكاد المشهد نفسه يتكرر بمصلى باب الفتوح بفاس، لما كان الناس يتأهبون لصلاة العيد، فقدم عليهم أسد من منطقة اللويزات، وهي من المنتزهات الشهيرة خارج فاس. وأمام هول الموقف، فر كثير من المصلين إلى أن تدخل الشيخ المهدي الزرهوني، ودنا من الأسد وأخذه من أذنه، وقال له:"أفزعت الناس يا عدو الله، ورمى به ناكصا على عقبه، فمات الأسد في حينه"[31]. من الملاحظ أنه في كلتا الروايتين، تم التشديد على أخذ الولي الأسد من أذنه، في إشارة إلى انقياده له. ففي لقاء الولي بالأسد، يصبح بأس الأسد غير ذي جدوى أمام كرامة ترويض الولي له. لا ريب في أن وجود الأسد بالبيئة المغربية الوسيطية شكل أحد أهم مصادر الخوف عند المغاربة، وكانوا يحسبون له حسابه في حلهم وترحالهم. فبمنطقة أزغار إيگمارن، كان السكان يلجؤون إلى إحاطة قطعانهم

27- م.ن، ج1، ص166.

28- التميمي، **المستفاد**، ج2، م.س. ص.38.

29-الصومعي،**المعزى**،م.س. ص 323.والرواية نفسها عند ابن عيشون أبوعبدالله،**الروض العطر الأنفاس**،الرباط، 1997، ص68.

30- ابن مريم التلمساني،**البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**،المطبعة التلمسانية،الجزائر،1907،ص.74

31- **بيوتات فاس الكبرى**، م.س. ص.22.

بسياجات عالية من الأشواك، ويسهرون الليل كله لحراستها خوفا من الأسد[32].

على أن كرامة ترويض الولي للأسد لا تنحصر في حماية الناس من بطشه، بل إن الآية قد تنعكس، فتصبح أسرة الأسد ضحية ممارسات الإنسان، مما يستوجب تدخل الولي للحد من تلك التجاوزات. وفي كلتا الحالتين، وكيفما كانت الأدوار، فإن بطولة الولي حاضرة لحماية الطرف الأضعف. تتحدث رواية منقبية عن حضور لبوءة لإحدى مجالس أبي يعزى، فربضت بين يديه دون أن يعرف الحاضرون أمرها، ولما لاحظ أبو يعزى جريان اللبن من ثدييها، قال لأصحابه:"إن أشبالها أخذن منها فابحثوا عن صغارها"، فإذا بهم يجدون شبلين عند أحد الجيران، أحدهما وجد ميتا، بينما أرجع الحي إلى اللبوءة التي أخذته وانصرفت[33].

إن الانطباع الذي يثيره مجرد ذكر الأسد، قبل أن يثيره منظره، أنه حيوان مفترس، لكن ألفة الناس له ببعض المناطق، جعلهم لا يهابون الأسد. ومن ذلك أن السكان في الغابة المحيطة بأم الربيع اكتسبوا مهارات في مقاتلته، ويتحدث الشريف الإدريسي عن كيفية مواجهة السكان الأسود بدون سلاح،"وإنما يلقونها بأنفسهم عراة يلتفون أكسيتهم على أذرعهم ويمسكون معهم قنات من شوك السدرة وسكاكينهم بأيديهم لا غير"[34]، حتى إن الأسود كانت تجتنب طرقهم. ويمكن حسب رحلة الوزان عبر ربوع المغرب، التمييز بين أسود مفترسة وشرسة اشتهرت بها بعض المناطق مثل المعمورة، وأسود وديعة كالتي انتشرت بمنطقة أكلا بالهبط، حيث كان الأطفال يطاردونها ويخيفونها بصراخهم، ومن ثم جاء المثل الذي يتداوله أهل فاس عن كل من يتعاظم ويتبجح وهو جبان، والقائل: "أنت شجاع كأسد أكلا التي تأكل العجول أذنابها"[35]. وسواء أكانت الأسود مفترسة أم أليفة بالمغرب الوسيط، فالذي يمكن أن يستفاد من المصادر المناقبية، هو أنها أذعنت للأولياء، وأن ترويضها كان من أهم كرامات بعضهم، كما كان الشأن مع أبي يعزى.

32- الوزان، وصف أفريقيا، م.س. ج1، ص.284.

33- العزفي، دعامة، م.س. ص 64.

34- الشريف الإدريسي،**نزهة المشتاق**، المجلد 1، ص 237.

35- الوزان، وصف أفريقيا، م.س. ج1، ص.239.

ج: كرامة تخليص الحيوان من بطش الأسد:

كان الأسد مصدر ترويع للإنسان المغربي في العصر الوسيط، كما لحيوانه، غير أن الحيوان كان الفريسة المفضلة للأسد. ومن المناطق التي عانت الحيوانات بها من هجمات الأسود، منطقة تييوت(جنوب المغرب) حيث كانت توجد بكثرة وتفترس ماشيتها36. كما أن الأسد كان يفترس الحيوانات بمنطقة سكيم بجبال تادلا ويبتر أعضاء الكثير منها37. وفضلا عن الماشية، كانت الدواب عرضة لافتراس الأسود. مثال ذلك الرواية التي ذكرناها آنفا، بمناسبة زيارة جماعة من أهل فاس لأبي يعزى، حيث خرج من الشعراء أسد وثب على دابة أحدهم، فتدخل أبو يعزى صائحا على الأسد ودنا منه وأخذه بأذنيه، إلى آخر الرواية[38].

وقد يسري مفعول كرامة الولي في ترويض الأسد دون حضوره، ويكفي استحضار اسمه ليذعن الأسد، وهذا حال جماعة كانوا متوجهين لزيارة أبي يعزى، فأدركهم الظلام قبل أن يصلوا إلى تاغية حيث مقر إقامة الولي، وهاجمهم الأسد، وبادر أحد الذين تردد كثيرا على زيارة الولي بأن خاطب الأسد: "أنت في الدعوة للشيخ أبي يعزى" فانصرف الأسد[39].

تبرز الأدوار الاستثنائية لأبي يعزى من خلال تخلصه من الأسد الذي فتك بالحمار ومن خلال حثّه على عدم التعرض لأتباعه. وإذا ما جاز تأويل الكرامة، فالأسد يرمز إلى الملك وإلى السلطة السياسية، والحمار يرمز إلى العامة وإلى الأتباع، ممّا قد يعبر عن ذلك التوتر البنيوي الذي طبع العلاقات بين السلطة السياسية والسلطة الرمزية للمتصوفة بالمغرب الوسيط. غير أن مقاصد الكرامات التي يحضر فيها الأسد باعتبارها رمزا على السلطة السياسية، إنما تأتي لتحقق نوعا من التوازن بين الولي والسلطة، «فقد سلم

36- الوزان، وصف إفريقيا، ج1، م.س. ص.81.

37- **م.ن**، ج1، ص.147.

38- ابن الزيات، **التشوف**، م.س. ص ص 217-216.

39- أبو العباس العزفي، **دعامة اليقين في زعامة المتقين**، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، 1989، ص63.

الخليفة بما أتى به أبو يعزى، وأبو يعزى في خدمة السلطة المركزية أو مساعد لها : يطفئ الثائرة بين القبائل ويدعوها لطاعة الخلفاء»[40].

وثمة كرامة لأبي يعزى تلخص هذه العلاقة المتوجسة بين السلطة السياسية بمختلف أدواتها والسلطة الرمزية للأولياء ومدى توظيف هؤلاء لسلطتهم لإحداث التوازن داخل المجتمع من خلال علاقاتهم بالحيوانات، بما فيها الأسد. ففي إحدى الأيام، كان أبو يعزى في "غيضة"من تلك "الغيضات" متجردا من ثيابه، فاجتمع "عليه أنواع البهائم من السباع والوحوش والحشرات والهوام، وكل يشم ويلحس ما أدرك منه"[41]. إذا جاز تأويل هذه الكرامة، فالغيضة ترمز إلى المجتمع والثياب إلى الآثام والبهائم إلى الناس والسباع إلى السلطة والوحوش إلى أتباع السلطة والحشرات إلى ضعاف الناس والهوام إلى عامة الناس[42]. فالكل كان في حاجة إلى خدمة الولي انطلاقا من أعلى رأس في السلطة إلى أبسط عنصر في مجتمع آمن بمفعول المقدس.

وبينما كان أحد زوار أبي زيد الهزميري وحيدا في الطريق، هاجمه أسد فقال: «خاطرك معي ياسيدي أبا زيد» فوقف الأسد كأنما «سمرت»قدماه بالأرض، وبعد أن التقى بهذا الولي، أخبره بأن الله أراح المسلمين من ذلك الأسد، وبرجوعه إلى مراكش، وجد الأسد «على الطريق منجدلا وهو كالجذع»[43].

لقدكان الحمار من أهم وسائل النقل بالمغرب الوسيط، مما جعله أكثر الحيوانات عرضة لهجمات الأسد[44]. ومن الطريف الإشارة إلى أن كل الحيوانات تفر من زئير الأسد ما عدا الحمار. غير أن كرامة الولي- حسب الرواية المنقبية- قد تجعل من الحيوانين يتآلفان، بل ويتساكنان. فعند زيارة جماعة لأبي يعزى، أمرهم الولي بالخروج للنظر إلى شيء عجب، وهو أن الحمير كانت»راقدة والسباع قريبة منها ولم تنفر الحمير من السباع، ولا وثب السباع على الحمير»[45].

40- محمد مفتاح، السياسة الحيوانية (قراءة في كرامات أبي يعزى)،ضمن **التاريخ واللسانيات**، تنسيق عبد الأحد السبتي، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1992، ص75.

41- دعامة اليقين، ص 54.

42- محمد مفتاح، السياسة الحيوانية، م س، ص 80.

43- ابن عيشون، **الروض العطر**، م.س. ص ص.215-214.

44- انظر مثلا **المعزى**، م.س. ص 115.

45- ابن الزيات، **التشوف**، م.س. ص.217.

ويبلغ تماهي الولي مع الأسد مداه حينما يتحول إلى صورة هذا الحيوان. ومن الأولياء الذين ربطت كراماتهم- حسب الروايات المنقبية- بهذا التحول، الحاج حسون المدفون قريبا من بادس[46]، والحاج حسن البقويي. فلما التقى أحدهم أسدا في الطريق وهمهم إليه، لم يكن ذلك الأسد سوى الحاج حسن البقويي متحولا في صفة حيوان، وقد ساق صاحب المقصد أبياتا شعرية عن هذا التحول الذي كان يتحقق لبعض الأولياء، ومنها البيت القائل:

طورا يرى أسدا وطورا طائرا ومتى تراه الشكل فهو الواحد[47]

إن تحول الولي إلى الأسد أو تكليم الأسد للولي، يأخذ مرجعيته من مجموعة من القصص التي تستدعيها كتب المناقب عن بعض لحظات التاريخ الإسلامي الأول، محاولة من أصحابها تأكيد جواز الكرامة وحقيقتها. ومن هذه القصص «قصة مولى رسول الله صلى عليه لما انكسرت به السفينة، ولقي الأسد، فدله على الطريق يهمهم ويدفعه بمنكبه حتى أقامه على الطريق، ثم همهم، فعلم أنه يسلم عليه»[48].

وحينما يتحول الولي إلى أسد عادي، فلتحقيق مقصد خيِّر من وراء الكرامة. لكن أن يتخذ الأسد لون السواد، فذلك -حسب الرواية المنقبية- تشويه لإنسان كثرت ذنوبه وتعددت خطاياه، وهذا ما يحيل عليه تأويل لأبي يعزى لما زاره الأشياخ، فبادرهم بالقول: "قولوا لايزم سكان (أي الأسد الأسود) لا يشعر بكم ولا يدخل بينكم، ولا يحضر مآكلكم، فإنه كان رجلا فاجرا اقتطع بيمينه حق امرئ مسلم فمسخه الله أسدا أسودا... وهذا الأسد... كان يسمى بتلك البلاد بوتبرنوست"49 (أي صاحب البرنوس). إن التحول من صفة ولي إلى صفة أسد يحقق المقاصد الإيجابية، كالمجازاة أو الخلاص والنجاة... وأما المسخ فهو عقاب للسقوط في الفجور والفسوق. ومن المهم الإشارة إلى أن كرامة"المسخ" تمت بحضور الأشياخ، فهل كانت رسالة مشفرة من أبي يعزى إلى ممثلي السلطة الزمنية عن التجاوزات التي- لربما- أحدثوها بالمجتمع، وتذكيرا لهم بمآلهم؟ كيفما كان الأمر، فهذه الرواية كغيرها من الروايات المنقبية، حمّالة لكثير من العلامات الدالة على ذلك

46- البادسي، **المقصد**، **م.س.** ص.63.

47- **نفسه**، ص.57.

48- العزفي، دعامة، **م.س.** ص.18.

49- العزفي، دعامة، **م.س.** ص.56.

الصراع المعلن أو اللامصرح به بين سلطتين، عملت كل واحدة منهما على تأطير المجتمع بالمغرب الوسيط وتوجيهه، وهما السلطة السياسية والسلطة الرمزية للأولياء.

وتجعل الرواية المنقبية الولي صلة وصل بين الأسد والناس من خلال خطاب متبادل بين الأسد والولي، وهذا الأخير هو المؤهل وحده لفك طلاسمه. فقد هاجم أسد ماشية لأحد جيران أبي يعزى، وحاول الناس قتل الأسد برماحهم دون جدوى، إلى أن تدخل أبو يعزى ودخل في حوار مع الأسد، وأقنعه بعدم تكرار فعلته، ودعاه إلى التوبة «فهمهم الأسد ثم أكد عليه وشرط ألا يوذي مسلما بعدها، ثم همهم، وقال لهم: إنه تاب ثم قال للأسد مد يدك، فمدها إليه»[50]. لقد تعود أبو يعزى على الجلوس بين الأسود تكلمه ويكلمها [51]. إن خاصية تكليم الإنسان للأسد قد تكون متاحة لجميع البشر، لكن العجب هو أن يكلمك الحيوان، ولو كان الكلام مجرد همهمة. فتكليم الحيوان للإنسان غير متاح إلا للقلائل من الأشخاص، مثل النبي سليمان الذي خاطبه الهدهد. والكرامة في هذا السياق-كما في سياقات أخرى-[52] تعيد إنتاج معجزة سابقة، مما يجعل الولي يندمج في مصاف الأنبياء[53].

د: كرامة ترويض الأسد في الخدمات الاجتماعية:

تعددت المستويات الاجتماعية التي حضر بها ترويض الولي للأسد بالمغرب الوسيط. فمنها القيام بوظيفة الحراسة، كما حدث مع أبي موسى عيسى الزرهوني الذي كان له جنان لا يفارقه الأسد، وكلما وصل إليه، فر الأسد منه، وبعد انصراف الولي، يرجع الأسد إلى الجنان[54]، وأما ابن علي المؤذن، فكان يقطع مسافة بين منزله والمسجد، وإذا قام في السحر ليؤذن، تبعه الأسد إلى أن يدخل المسجد، فينصرف عنه[55]. وتجلت كرامة ترويض الأسد كذلك، في التخفيف من الأعباء اليومية. فهذا الشيخ عبدون بن يخلفتن بن علي البقيوي كان يضع الحزمة العظيمة من الحطب على ظهر الأسد، ويأمره بنقلها

50- العزفي، **دعامة**، م.س. ص 55.

51- **نفسه**، ص 56.

52- التادلي، **التشوف**، م.س. ص 208.

53- عن تحليل هذا السياق، انظر: عبد الفتاح كليطو،"الولي والجمل"،ضمن **التاريخ وأدب المناقب**، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، منشورات عكاظ، 1989.

54- التميمي، **المستفاد**، ج2، م.س. ص.117.

55- ابن الزيات، **التشوف**، م.س. ص 168.

إلى المنزل، وتذهب الرواية المناقبية إلى أنه بفعل كرامته، أصبحت جدة عثمان بن داود تحتطب على الأسد وحدها[56]. بينما تذهب رواية أخرى إلى أن الأسد كان يكسر الحطب لفائدة أحد الأولياء، وهو يجمعه ويربطه بحبل على ظهر الأسد لينقله إلى منزله، ويعود ثانية إلى الغابة[57]، هكذا تحول الكرامة الأسد، وهو ذو البأس والشدة إلى مجرد خادم وديع للولي، وتنطبع الذاكرة الجماعية بفعل السلطة الرمزية التي يمتلكها الولي بأنه قاهر الأسود وصاحب القوة والبأس الحقيقي، وهل هناك ما هو أقوى من ترويض الأسود دون أن تربى! وتفيد إحدى كرامات أبي مدين أن أسدا افترس حمارا دون أن يتمكن صاحبه- الذي كان في حالة قصوى من الفاقة والحاجة- من إبداء أي رد فعل، فتدخل أبو مدين وأخذ بناصية الأسد، وطلب من صاحب الحمار أن يمسك بالأسد، ويستعمله في الخدمة في موضع الحمار[58].

ومن المظاهر الاجتماعية الأخرى لكرامة ترويض الولي للأسود، تحقيقها لمقاصد الشرع إذا ما غاب في الممارسات. ومن ذلك أن محمد اليستثني أمر تلامذته بالانصراف إلى أحد المنازل ليأخذوا شاة من ماشية صاحبها بقيت عنده من الزكاة، وذلك لما ألح أحد الأسود في الزئير، وما كاد التلامذة يصلون إلى المنزل، حتى سمعوا صياحا به، وفي اليوم الموالي، وصل صاحب المنزل إلى الزاوية ليطلع الحاضرين بها على خبر انقضاض الأسد على شاة من أجود غنمه، وحصل ذلك - حسب الرواية المناقبية- عقابا له عن عدم دفعه ما عليه من الزكاة[59]. وأما الولي أبو داود مزاحم، فكان" لا يرى أحدا يفعل معصية كبيرة أو صغيرة إلا هلك الفاعل"، وسلاحه في ذلك كراماته التي كانت كرامة ترويض الأسد إحداها، بل إن مفعول هذه الكرامة قد ينسحب على الولي ذاته، وهذا حال الولي أبي داود مزاحم المشار إليه آنفا، لما شكاه أحدهم إصابة دابتين للولي شيئا من زرعه، فقال له:"كفيتهما، فأهلكهما السبع تلك الليلة"[60]. فكرامة ترويض الأسود لا تستثني حتى الأولياء إذا ما كانت تحقق خدمة أو مقصدا اجتماعيا.

56- البادسي، **المقصد**، م.س. ص.129.

57- الصومعي، **المعزى**، م.س. ص188.

58- ابن مريم، البستان، م.س. صص 112-111.

59- البادسي، المقصد، م.س. ص ص 87-86.

60- **نفسه**، ص.53.